



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

التصوف المعاصر

(أفغانستان، السودان، المغرب، العراق)

الكتاب السابع والخمسون – سبتمبر (أيلول) 2011

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الطرق الصوفية في البصرة (تاريخ وأسماء وشواهد)

علي الحسيني*

يكتسب الحديث عن الطرق الصوفية في
البصرة أهمية خاصة، لأنها رائدة الصياغات الأولى لأشكال
التصوف الإسلامي في دلالته الروحية الشاملة، بالإضافة
إلى مساهمتها الضخمة في تأسيس مدارس، تعد اليوم مراجع
أصيلة لكل سالك مسلك الزهد، ليس في العالم الإسلامي
حسب وإنما تعدت تأثيراتها إلى خارج حدوده.

(* كاتب و باحث عراقي.

وحتى لو اتفقنا مع من يقول: إن التصوف هو صناعة هندية أو فارسية أو بوذية، أو إنه متأثر بالرهبانية المسيحية. فهو لا يزيح مكانة البصرة ودورها المتحقق في تأسيس مدارس خاصة بها. وهو ما دفع فيما بعد كافة الطرق الصوفية-على مختلف معتقداتها، ومفاهيمها- إلى ادعاء الانتساب لها والإصرار على أن أديباتها صيغت وفقا لأقوال وأفعال متصوفة البصرة الأوائل.

ومن المهم الإشارة إلى أن الدراسة اعتمدت بدرجة كبيرة في ما يتعلق بتاريخ الطرق الصوفية في البصرة خلال قرن من الزمن تقريبا على روايات ومدونات الأسر الصوفية في المدينة، ولقاءات مباشرة أجريناها مع بعض كبار المتصوفة.

الحركة الروحية في البصرة: الظهور الأول

شكلت البصرة مهد الزهد الإسلامي الأول، وثقله الروحي. ففيها عُرس أولى بذور الحركة الروحية، لتثمر تاليا أهم مدارس التصوف في ربوع العالم الإسلامي. فقد كانت مقصدا لطلاب المعرفة الصوفية، والباحثين عن الرياضات الروحية، وصفاء النفس.

ويعزى ظهور مدارس الزهد في البصرة، إلى؛ تضخم الحياة فيها. فقد وسعت تجارتها، وازدادت غنى وثروة، مما أدى إلى ترف أهلها، وتعاطم الفسق بينهم، بحيث شكا واليها على عهد معاوية «زياد بن أبيه» من كثرة بيوت الفسق واللعب فيها. وهذا ما استدعى العبادة والجد والزهد والتفكير.⁽¹⁾

كانت البصرة تتقبل كل أنماط الحياة، فالمتناقضات الكثيرة فيها، لم يمنعا من أن تكون واضحة النواة الأولى للزهد الإسلامي، وللتصوف لاحقا.

وقد اعتبر بعض الباحثين، وشاطرهم العديد من المستشرقين، إن ظهور حركة الزهد في البصرة، هي بمثابة صيحة نقد ايجابية، إزاء ما استشرى من فساد وفتن.

(1) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج3، ص105.

تريد تصحيح الواقع، والعودة بالمجتمع إلى مثله وقيمه، لتتجاوز الأنفس قلقها، ويعود إليها انسها وصفافؤها.⁽²⁾

فلم يعد أمرا غريبا، أن يظهر في هذه البيئة ممن يدعون إلى التخلية والتحلية: تخلية النفس عما سوى الله، وتحليتها بكل ما هو رباني والهي وابدئي. وهو ما اصطلح عليه المتصوفة لاحقا بالفناء والبقاء: أي فناء الصفات المذمومة، وبقاء الصفات المحمودة.⁽³⁾

ارتبط ظهور «التصوف» كمدرسة لها أصولها، وفلسفتها الخاصة، في التراث الديني الإسلامي. بظهور حتمي سابق كان ضروريا لولادة الشكل الروحي، الذي عرف لاحقا بالتصوف. وتمثل ذلك الظهور بجموع سالكي طريق الزهد، والنسك الروحي، والتعبدية في البصرة أولا، وفي الكوفة لاحقا، ومن ثم بغداد، ومنها إلى بلدان العالم الإسلامي. ولم يكن هناك ما يصح تسميته اليوم بمدارس التصوف أو الطرق الصوفية.

نعم، نعثر على أشكال أولى للرياضة الصوفية، ساهمت بدور كبير في إنضاج الحركة الروحية، والطرق التي عبرت عنها لاحقا، وهذا أمر هام للغاية، سيكون سببا لظهور الحركة الروحية، فيما بعد بقالبها الفلسفي الصوفي.

تلك الأشكال الأولى للروحانية الإسلامية، مهد لها الكثير ممن كانوا يعرفون، بطبقة الزهاد والنسك. والأسماء في هذا المجال، كثيرة وكبيرة. لكن المؤثرين منهم في صوغ الطرق الصوفية يبقى عددهم محدودا. ويتقدم أولئك؛ شخصيتين بارزتين، في تاريخ الحركة الروحية في الاسلام. وهما الحسن البصري، ورابعة العدوية.

فقد كانا يمثلان اتجاهين ممهدين لظهور حركة روحية جديدة، لا تعتمد على الزهد والورع وتقوى الله ومخافته، في الممارسة الروحية وحسب. بل تطورت،

(2) عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، ص52.

(3) موسوعة حضارة العراق، ج3، ص274.

نحو ايجاد بناء فلسفي واخلاقي، لا تنحصر روافده في المصادر الاسلامية، بل تتعدى ذلك بالاستفادة من حكمة هندية وفلسفة يونانية وغنوصية فارسية ورهبانية مسيحية.⁴

وهنا يقول المستشرق نيكلسون: (واقدم انواع التصوف الاسلامي كان تصوف زهد وورع، لا تصوف فلسفة ونظر. فالصوفية الاوائل كانوا في الحقيقة زهادا اكثر منهم صوفية).

المؤكد ان البصرة والعراق عموما، مهد «التصوف الإسلامي». كما إن التصوف، بمعناه الاصطلاحي أيضا، اخذ شكله، وصيغت أطره، ووضعت هياكله في العراق، من قبل شيوخ الصوفية الأوائل. ممن تعد اليوم أدبياتهم ومدوناتهم، المصادر الأساسية في دراسة التصوف، منهجا، وطريقة وسلوكا. من امثال: ابي نصر السراج (ت 138هـ) صاحب كتاب (اللمع في التصوف)، وابي طالب المكي (ت386هـ) صاحب كتاب (قوت القلوب في معاملة المحبوب)، وابي بكر الكلاباذي (ت358هـ) صاحب كتاب (التعرف لمذهب اهل التصوف)، وابي القاسم القشيري (ت465هـ) صاحب (الرسالة القشيرية)، وابي حامد الغزالي (ت505هـ) مؤلف (احياء علوم الدين).

كما ظهرت اسماء وطرق كثيرة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. كأبي العباس احمد الرفاعي (ت578هـ) صاحب الطريقة الرفاعية، وعبد القادر الكيلاني (ت560هـ) مؤسس الطريقة القادرية، والسهروردي صاحب الطريقة السهروردية (ت563هـ).

كل هذه الاسماء لعبت دورا اساسيا، في صوغ القواعد، والاصول التي تحكم العلاقة بين المرید والطريقة، وبينه وبين شيخها. وما يستتبع ذلك من ممارسة

(4) موسوعة حضارة العراق، ج8، ص277. مصدر سابق.

الطرق الصوفية عبر الماضي والحاضر⁽⁶⁾

يبدو أن انحسار الطرق الصوفية، وقلة عدد تكاياها وزواياها في البصرة لم يكن أمراً عائداً إلى السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة. وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل بل نتلمس هذا الغياب أو الانحسار في فترة مبكرة ترجع إلى القرن الثالث عشر الهجري، أي قبل أكثر من قرن. على الرغم من أن تلك الفترة، كانت فترة ذهبية للطرق الصوفية، حيث كانت الرعاية الكبيرة التي تتلقاها من العثمانيين الذين كانوا يدعمون الطرق بسبل شتى ويشجعون على انتشارها. وهذا ما يضع علامة استفهام كبيرة، حول العوامل الكامنة وراء هذا التراجع السريع للطرق الصوفية في البصرة.

وتجب الإشارة هنا إلى عدم توفر مصادر وكتب خاصة عن تاريخ التصوف بشكله المؤسسي في البصرة بدءاً من القرن الرابع الهجري وإلى الآن، عدا بعض الإشارات الطفيفة التي تنشر في هذا الكتاب أو ذاك. وهذا أمر زاد من صعوبة معرفة الطرق التي كانت تسجل حضوراً قوياً في البصرة، سواء عبر شخصياتها أو عبر أماكن وجودها وانتشارها. سنحاول التطرق إلى ما تم العثور عليه:

الطريقة السهلية

من الطرق البصرية القديمة والمندثرة، يعود تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري. وربما هي الوحيدة من بين الطرق الصوفية القديمة التي

(5) موسوعة حضارة العراق، ج8، الصفحات(281،282)

(6) بعض المعلومات المذكورة تحت هذا العنوان، وعلى وجه التحديد تلك التي تخص بعض التكايا المندثرة والموجودة والتي لم يشر الباحث إلى مصدرها. فهي من معلومات وفرها لنا أحد متصوفة البصرة الكبار وهو الخليفة جاسم محمد أحد مؤسسي الطريقة الكسنزانية في البصرة.

كان مولدها البصرة. ومنها انتشرت في العراق وباقي البلاد الإسلامية.

أسس هذه الطريقة أبو محمد سهل بن عبدالله التستري⁽⁷⁾ نسبة إلى تستر (شوشتر حالياً)، وهي من مدن إقليم خوزستان الإيراني. ويعد التستري، واحداً من أكابر فقهاء وعرفاء عصره⁽⁸⁾. غادر مسقط رأسه إلى البصرة بسبب بعض أقواله التي استفزت بعض العلماء والعامّة في عصره. من تلك الأقوال التي استغلت للتشهير به، قوله: «التوبة فرض على كل عبد في كل نفس».

ويحكى عن التستري أنه قال: خالي قال لي: أذكر الله الذي خلقك. فقلت كيف أذكره؟ فقال لي: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك، الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهد علي. وكان التستري يُسأل عن حقائق الزهد والورع ومقامات الإرادة وأصول العبادة وهو ابن عشر، ويُحسن الإجابة عنها إذ قال: من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع⁽⁹⁾.

وهناك ممارسات زهدية لدى التستري عرّفت زهده وورعه حيث قال: لا معيل إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى ولا عمل إلا بالصبر⁽¹⁰⁾. وقد لخص التستري مبادئ طريقته بالنص التالي: اعلموا أن الله في ذاته عالم، وأنه لا يدرك، ولا تراه العين الباصرة في هذه الدنيا، ولكنه موجود يدرك بحقائق الإيمان، لا نهائياً لا يدرك، غير حال في مكان أو زمان، وأنه سيرى في الآخرة ظاهراً وباطناً في مملكته وعزته وقوته. واعلموا أن الناس محجوبون عن معرفة طبيعة ذاته وأن عقولهم لا يمكن أن تصل إليه⁽¹¹⁾. وتوفي التستري سنة 289هـ/896م ودفن في البصرة، ويقع

(7) انظر: الأصفهاني، حلية الأولياء، 10/189. والسلمي، طبقات الصوفية، ص206. نقلاً عن الموسوعة الصوفية، عبد المنعم الحفني، ص79-81.

(8) المصدر السابق، وانظر أيضاً: الشعراني، الطبقات الكبرى، 1/76.

(9) الموسوعة الصوفية، مصدر سابق.

(10) السلمي، طبقات الصوفية، ص211.

(11) التستري، من التراث الصوفي، حققه إبراهيم محمد جعفر، القاهرة، دار المعارف، 1974، 1/150. وانظر أيضاً: الموسوعة

قبره في قرية الحمزة في قضاء أبو الخصب⁽¹²⁾.

الطريقة الجوزية

تنسب الطريقة إلى الشيخ محمد أبي الجوزي، يقال إنه أحد متصوفة البصرة الكبار، ولعله من طبقة المتأخرين⁽¹³⁾. وما زال قبره ماثلاً تعلوه قبة من الطين في قرية بالقرب من محلة السراجي على طريق قضاء أبو الخصب جنوب شرق البصرة. وهناك غموض واسع يلف هذه الشخصية، وندرة كبيرة في معلومات، تخص سيرته ومنهجه الصوفي. فلم يرد اسمه في المدونات التاريخية المعروفة التي تناولت سير وطرق المتصوفة سواء في العراق أو غيره.

كما لم يشر الباحثون في الطرق الصوفية، ومنهم المؤرخون لها، إلى وجود طريقة تحمل هذا الاسم. بالإضافة إلى أن متصوفة البصرة المتأخرين لا يعرفون عنه سوى أنه متصوف بالرغم من أن بعض الباحثين ذكروا هذا الاسم، أعني الطريقة الجوزية⁽¹⁴⁾.

اعتقد أن الإشارة إلى الطريقة الجوزية لا تتعدى المجاز، وحدود نسبتها إلى اسمه، بوصفه صوفياً قديراً كما هي الرواية المتداولة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ أبا الجوزي لا يمتُّ بصلة إلى العالم الشهير ابن الجوزي فان الأخير بغدادى وقبره في بغداد معروف⁽¹⁵⁾.

على العموم فإن ضريح أبي الجوزي يعاني اليوم من تصدعات كبيرة مما جعلت بناءه البسيط مهدد بالسقوط. وبالفعل كان الضريح يضم قبتين قيل إن

الصوفية، ترجمة التستري، ص 80-81

(12) عبد القادر باشا أعيان، موسوعة تاريخ البصرة، ج 1، ص 354

(13) عبد القادر باشا أعيان، موسوعة تاريخ البصرة، ج 1، ص 354

(14) حسين بن سعدون، البصرة ذات الوشاحين، ص 281، وانظر أيضاً: العمارة العربية في البصرة، منذر عبد الكريم البكر، ص 27.

<http://www.basrahcity.net/pather/bbook/amaraarabia/01.html>

(15) محمد النهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ج 9، ص 62-63

إحداهما تعود لزوجته وقد انمحت بالكامل منذ فترة ليست بقصيرة. وقد احتلت ساحته بعد عام 2003، مع جزء من ضريحه من قبل بعض المواطنين المتجاوزين الذين حولوها إلى معمل لصناعة البلوك ومسكنا لهم.

الطريقة القادرية

وهي أهم وأقدم الطرق الصوفية في العراق، والتي تنتسب إلى عبد القادر الجيلاني (471 هـ - 561 هـ). ولها أتباع في غالبية الدول العربية والإسلامية من العراق ومروا بالشام ومصر وشرق إفريقيا، وهي تعتبر أعمق المدارس الصوفية وأكثرها تنظيماً. بالإضافة إلى أنها في الغالب تعد مرجعاً لكل المتصوفة المسلمين. وحتى إن بعض رجال الطريقة يعدون مؤسسها أستاذاً وشيخاً لأبي العباس الرفاعي مؤسس الطريقة الرفاعية بينما يذهب الرفاعية إلى عكس ذلك. بمعنى أن الرفاعي الكبير كان هو الأستاذ والشيخ لمؤسس الطريقة القادرية.

والطريقة القادرية هي أكثر الطرق انتشاراً في العراق، وتتفرع عنها كثير من الطرق الأخرى. وفي البصرة هي من أقدم الطرق الصوفية ولفترة طويلة إلا أنها اليوم تغيب كلياً عن المشهد الروحي في البصرة. وقد كانت للطريقة تكايا كثير، منها منفصلة قائمة لوحدها، ومنها تكايا ملحقة إما ببيوت مؤسسها أو بالمساجد والجوامع. ومن أهم وأبرز التكايا التي تعود للطريقة، والتي كانت مركزاً روحياً مهماً في البصرة هي:

تكية جامع المقام. وهي من التكايا الملحقة بهذا الجامع الأثري الذي أسس عام 1745م، وتوقف الذكر الصوفي⁽¹⁶⁾ فيه منذ ستينيات القرن الماضي.

تكية جامع ذي المنارتين. وهي ملحقة بهذا الجامع الذي يعد من المساجد الأثرية التي يعود تاريخها إلى عام 1765م، وهي من التكايا المندثرة على الرغم من

(16) الذكر الصوفي، نقصد به نوعاً محدداً من الأذكار الصوفية وهو: إقامة المدائح النبوية

بقاء الجامع شاخصا حتى اليوم.

تكية الزبير: يتطرق بعض المؤرخين المعاصرين إلى وجود تكية في الزبير، تم بناؤها عام 1307هـ، من قبل إحدى شخصيات أسرة النقيب. وهي ملاصقة لضريح الصحابي الزبير بن العوام. وقد هدمت، وأعيد بناؤها عام 1380هـ وسلمت إلى دائرة أوقاف البصرة. لكنها لم تدم طويلا للتحويل إلى روضة أطفال، وعادت بعدها لتكون بالنسبة لإمام جامع الزبير بمثابة المسكن له⁽¹⁷⁾.

ويبدو أن التكية بنيت لغرض إيواء خدمة الضريح. ولم يشر ممن كتب عن هذه التكية إلى عائدتها لأية طريقة صوفية لكن بعض المعاصرين ذكروا أن التكية هي من التكايا التي تعود إلى الطريقة القادرية. على الرغم من أن الأسرة التي كانت تدير شؤونها هي أسرة النقيب المعروفة بانتمائها إلى الطريقة الرفاعية. واليوم لا يوجد أي أثر لهذه التكية في الزبير. ويقال إنها أغلقت نهائيا في سبعينات القرن الماضي. وهي غير التكية التي تم بناؤها أواخر الثمانينيات في الزبير بالقرب من الحي العسكري، والتي تعود إلى الطريقة الكسنزانية.

تكية المشراق: وهي ملحقة ببيت مؤسسها عبد الوهاب في محلة المشراق، وقد أغلقت بعد وفاته في الثمانينيات من القرن الماضي.

تكية أحمد عبد الرحمن: مؤسس هذه التكية هو الشيخ أحمد عبد الرحمن وقد أسسها في منزله في محلة القبلة وسط البصرة. ويعدها بعض صوفية البصرة من التكايا القادرية النشطة في إقامة الأذكار وحلقات المدح والإنشاد. لكنها اندثرت بعد أن قام صاحبها بافتتاح تكية تعود للطريقة الرفاعية في مقام عز الدين في منطقة البصرة القديمة عام 1978. ويذكر بعض معاصريه أنه أصبح شيخا للطريقتين

(17) انظر: إمارة الزبير بين هجرتين ج 1 ص 34، وتاريخ الزبير والبصرة لابن الغملاس، باب إعمار المساجد، نقلا عن الموقع الإلكتروني: <http://alzubair.net/bnghmlas.htm>

القادرية والرفاعية في وقت واحد⁽¹⁸⁾.

الطريقة الرفاعية

تعد أيضا من أهم الطرق الصوفية، وأكثرها انتشارا في عموم العالمين العربي والإسلامي. وتنتسب إلى مؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي الكبير المتوفى السنة 578هـ في جنوب العراق، في قضاء يحمل اليوم اسمه وهو تابع لمحافظة ذي قار.

على مستوى البصرة، فالرفاعية هي الأكثر حضورا وانتشارا وتأثيرا من بين جميع الطرق الصوفية، وقد استطاعت هذه الطريقة عبر رموزها، أن تمهد لولادة طرق فرعية عنها، بعضها اختصت بالبصرة دون سواها. يعود الأمر - ربما - إلى قرب موطن الرفاعي واستقراره من البصرة.

ما يميز الطريقة الرفاعية في البصرة عن سواها من الطرق القديمة والحديثة هو إقامتها الدائمة لحلقات المديح النبوي في التكايا والجوامع. وهو ما يميز أتباعها ويعدُّ علامة فارقة للطريقة. وللطريقة تكايا عديدة، أغلبها تعرض للاندثار أو الإغلاق. وأهم تلك التكايا:

- تكية مقام السيد رجب الرفاعي: ملحقة بمقام السيد رجب الرفاعي وهو سبط أحمد الرفاعي مؤسس الطريقة الرفاعية. وتقع التكية في قرية السبيليات إحدى توابع قضاء أبو الخصيب.

وعلى الرغم من بقاء المقام، وتوسعة بنائه واستحداث أبنية ومرافق أخرى إلى

(18) ربما يعد الجمع بين مشيخة الطريقتين في مدن أخرى وفي بلدان ثانية أمرا غريبا. خصوصا إذا تبين أن ثمة فروقات ما وتنازع بين الطريقتين حول ريادة الطرق الصوفية في الإسلام. إلا أن هذا الاستغراب ينحسر إذا عرفنا أن معنى المشيخة عند متصوفة البصرة خلال العقود الأخيرة لا يعني أن الشيخ المعين قد اخذ إجازة من شيخ الطريقة في العراق أو في موطن الطريقة الأصلي. بل هي مجرد رغبة يبعثها مريدو إحدى الطرق لشخص ما يظهر من خلالها رغبتهم في إدارة حلقات ذكرهم. وهذا يعني أن جميع مشايخ الطرق في البصرة عدا مشايخ الطريقة الكسنزانية هم شيوخ بالمجاز. أي أنهم لم يجازوا من قبل كبار مشايخ الطرق الصوفية الأم.

جانبه إلا أن دور التكية فيها اندثر.

- تكية الرفاعية في أبو الخصيب: كان يتولاها أحد أبناء الأسرة الرفاعية «ملا بدران الرفاعي» وقد اندثرت منذ السبعينيات.

- تكية مهيجران: تقع في قرية مهيجران، إحدى توابع قضاء أبو الخصيب. وهي مندثرة أيضا.

- تكية حمدان: تقع في قرية حمدان في قضاء أبو الخصيب. وهي مندثرة.

- تكية السراجي: تقع كذلك في محلة السراجي، التابعة أيضا لقضاء أبو الخصيب. وهي ملحقة بجامع السراجي القديم. وكان يتولى أمورها أشخاص معروفون وقد اندثرت التكية بوفاتهم.

- تكية مقام عز الدين: افتتحت في أواخر السبعينيات في مرقد السيد عز الدين أحد أحفاد السيد أحمد الرفاعي. وبحسب الروايات أنها الوحيدة من بين التكايا الرسمية المجازة من قبل الأوقاف في البصرة. وهي تقع - كما تقدم - في منطقة البصرة القديمة. وكانت من التكايا النشطة بين الأتباع الصوفيين. وما زالت قائمة على الرغم من وفاة مؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي عام 1990 لكنها تدهورت أوضاعها بعد عام 2003، وبعد وفاة متوليها جاسم الرفاعي عام 2010 انتهت التكية وهي مغلقة لأسباب قيل إنها أمنية

- تكية حي الحسين: ملحقة ببيت مؤسسها «حامد الرفاعي» وتقع في حي الحسين غرب مركز مدينة البصرة وهي من التكايا الحديثة. وقد أغلقت بعد انتقال صاحبها إلى منطقة أخرى.

- تكية محلة القبلة: وتقع بالقرب من ساحة الدواليب في محلة القبلة. أسسها

الشيخ عبد الرحمن الرفاعي وقد اندثرت بعد وفاته في الثمانينيات.

- تكية البصرة القديمة: وتقع في منطقة البصرة القديمة. وأسسها الشيخ عمر، وقد انتهت بوفاته.

مما تقدم يلاحظ أن حضور الطريقة الرفاعية كان يتوزع على مكانين وهما؛ منطقة البصرة القديمة مع قرى ومحلات تابعة لقضاء (أبو الخصيب).! يعود هذا الأمر- باعتقادي- إلى أن الأسر الرفاعية يتمركز وجودها في مكانين وهما؛ مركز المدينة إلى جانب قضاء (أبو الخصيب). لذلك انتشرت التكايا في المواقع التي توطنوها دون سواها. وهذا واضح أيضا من خلال معرفة أن الغالبية الساحقة من مسؤولي هذه التكايا هم من الأسرة الرفاعية دون غيرهم. وتعد هذه العائلة من العوائل البصرية القديمة التي بقيت محافظة على هويتها الصوفية طوال تاريخها.

وعلى الرغم من هذا الانتشار للتكايا الرفاعية، إلا إنها اليوم، إما مندثرة وممحية آثارها أو إنها مغلقة بلا حلقات ذكر إلا على نحو محدود.

الطريقة النقشبندية

أخذت الطريقة تسميتها من مؤسسها الشيخ بهاء الدين محمد بن البخاري الشهير بنقشبند المتوفي سنة 791هـ في الهند⁽¹⁹⁾. أما دخولها إلى العراق فقد كان على يد أبرز شيوخها، المعروف باسم خالد البغدادي الذي ولد في محافظة السليمانية عام 1190هـ ومن ثم هاجر منها بغداد في مرحلة صباه، ومنها انتقل بعد ذلك إلى سوريا وهناك مات عام 1242هـ⁽²⁰⁾.

وما زالت مدينة السليمانية تعتبر أهم مركز للطريقة في العراق، قياسا بوجودها المحدود في بقية المحافظات العراقية. وتوصف الطريقة النقشبندية بأنها

(19) المصدر: الطرق الصوفية ظروف النشأة وطبيعة الدور لممدوح الزوبي - ص 158 - 161.

(20) الموسوعة الصوفية، عبد المنعم الحفني، ص 393.

طريقة الصحابة. لذلك سميت في فترة ما باسم الطريقة الصديقية. وهي الطريقة الوحيدة ربما التي تميزت بذلك. إذ إن غالبية الطرق الصوفية تنتسب إلى أهل البيت سواء في الطريقة أو النسب أو الاثني معا. كما تعد الطريقة الوحيدة من بين نظيراتها اتخذت إحدى المليشيات اسمها في العراق، بعد العام 2003 حمل اسم جيش «رجال الطريقة النقشبندية». وهو مليشيا مسلحة تمكنت من القيام بأعمال كثيرة ضد قوات متعددة الجنسيات في العراق.

وتنفرد الطريقة بطريقة ذكرها الصوفي حيث لا تعتمد الجهر بالذكر بل تعتمد الذكر السري الصامت الذي يعتمد على القلب؛ بالإضافة إلى أن حلقات الذكر تؤدي جلوسا لا قياما ودون مصاحبة أية آلة موسيقية كالطبل أو الدف كما هو الحال مع الذكر القادري والرفاعي إلى حد ما.

وقد انتقلت الطريقة إلى البصرة عبر بعض مشايخها وأتباعها، الذين وفدوا إلى المدينة في السبعينيات من القرن الماضي. وقد كان الأبرز من بين من نشروا الطريقة في البصرة هو؛ عبد القادر الأربيلي نسبة إلى محافظة أربيل في شمال العراق. وقد مات ودفن في مقبرة الحسن البصري في قضاء الزبير. ويقول بعض من عاصر وعرف شيخ هذه الطريقة أنه كان يتمتع بحضور عال ومكانة كبيرة وسط أهالي قضاء أبو الخصيب مقر طريقتهم في البصرة.

ويذكر بعض معاصري الفترة الذهبية لهذه الطريقة في البصرة، إن تكيتهم التي تقع في جامع التكية النقشبندية. كانت تشهد فعاليات صوفية كثيرة، تنوعت بين إقامة حلقات الذكر اليومية والأسبوعية، بالإضافة إلى المدائح النبوية. وكانت مكتبة الجامع، تضم مخطوطات قديمة، ودواوين شعر نادرة، ونسخ أصلية من رسائل إخوان الصفا⁽²¹⁾.

وقد كان من أتباعها أيضا الشيخ يوسف الحسان إمام جامع البصرة الكبير،

(21) رزاق عبود، أبو الخصيب فردوس النخيل والمياه والشعر، على الرابط الإلكتروني

www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=91333

الذي اغتيل السنة 2006 في البصرة. والذي بمماته انحسرت الطريقة، وأغلقت تكايبها، وتوقفت حلقات الذكر عنها. ما عدا حلقة ذكر تتضمن مدائح نبوية فقط ينظمها بعض متصوفة البصرة في جامع الصحابي الزبير بن العوام.

كما أشرنا سابقا، إلى أن للطريقة تكيته الرئيسة المعروفة في قضاء أبو الخصيب، والتي كانت تتخذ من أحد الجوامع مقرا لها. والذي سمي لاحقا باسم جامع التكية ويقع في مركز القضاء. ولم يقتصر الذكر في هذه الطريقة على تكيتهم الرئيسة في القضاء، بل استطاعت أن تقيم حلقات الذكر الخاصة بها في جوامع كثيرة وسط البصرة معروفة بنشاطها الصوفي، من قبيل جامع الكواز وجامع الحدادة اللذين يعرفان بأنهما مراكز جذب أساسية، في إقامة حلقات الذكر الصوفي، على مختلف الطرق الصوفية. وتفتقر هذه الطريقة اليوم إلى وجود تكية لها على الرغم من أن لها بعض المريدين والأتباع.

الطريقة الشاذلية

معروف أن الطريقة الشاذلية، هي طريقة مغربية. أخذت تسميتها من نسبتها إلى منطقة شاذلة في المغرب. وتنتسب إلى أبي الحسن الشاذلي (ت 656هـ) الذي عاصر ابن عربي. ومن مدرسته خرَّج تلامذة مشهورين في عالم التصوف منهم: إبراهيم الدسوقي صاحب الطريقة الدسوقية، وأحمد البدوي صاحب الطريقة البدوية.

والطريقة الشاذلية، شأنها شأن بقية الطرق الصوفية، لها أفكارها ومعتقداتها وأورادها وطرق تربيتها الخاصة بها. وهي تتفرد عن بقية الطرق - على سبيل المثال - بالذكر المفرد (الله). وتنتشر الطريقة في بلدان المغرب العربي، بالإضافة إلى مصر. أما في العراق فوجودها محدود. ولا يوجد تاريخ واضح لوصول الطريقة إلى البصرة، ومن أدخلها أول مرة. كل هذا غير واضح، على الرغم من وجود جملة من صوفيها مدفونين في جامع الكواز وسط البصرة الذي تم بناؤه عام 920هـ في زمن الشيخ

محمد أمين الكواز الذي دفن فيه وسمي الجامع باسمه⁽²²⁾.

ويقال إن الشيخ محمد أمين الكواز (ت953هـ) هو شيخ الطريقة الشاذلية في البصرة⁽²³⁾.

ويضم الجامع غرفة تسمى بـ(حجرة السبعة) فيها سبعة قبور تعود جميعها لمشايخ الطريقة الشاذلية. وهم من الذين درسوا وتعلموا على يد «الولي» وهو لقب عرف به الشيخ الكواز. ويشير تاريخ وفاة آخر المشايخ السبعة إلى (1070هـ/1659م)، وهو الشيخ عبد القادر العباسي صاحب كتاب مناقب الكوازيين⁽²⁴⁾. كما أن الجامع يضم قرابة الخمسين قبراً منها: قبور لبعض مریدی الطريقة بالإضافة إلى قبور بعض الشخصيات العامة. وتشير تواريخ آخر القبور التي يقال إن بعض أصحابها كانوا من مریدی الطريقة إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

ولا تتوفر معلومات حول ما حصل بعد ذلك للطريقة في البصرة. كما لا يوجد أي مؤلف - حسب علمي - لهذه الطريقة في البصرة ومعتقداتها وبمن كانت تتصل؟ ومن هم شيوخها في العراق؟، وبمن كانوا يتصلون؟ وأين كانت تتواجد تكاياهم. وهل لهم حضور في محافظات عراقية أخرى؟ وأين؟

كل هذا لا يتوفر ويجعله حتى المتصوفة الحاليون، والمؤكد فقط أن جامع الكواز يعد واحداً من أقدم المراكز الصوفية في البصرة. وما زال يلتقي عنده يوم الجمعة بعض مریدی الطريقة ومتصوفة البصرة على العموم. وما زال هذا الجامع هو مقر طريقة الشاذلية يحتضن إقامة حلقات الذكر الأسبوعي مع إقامة المواليد والمدائح النبوية. ويتولى أمور الطريقة اليوم الشيخ محمود حسين العلي الذي ينسب له الفضل في إعادة الحياة لهذه الطريقة والمحافظة على استمرارها. وقد تعرض الجامع في عام 2006 إلى أعمال عنف طائفية كما اغتيل إمامه الشيخ وفیق الحمداني بنفس

(22) منذر عبد الكريم البكر، العمارة العربية في البصرة، دراسة في تاريخ فن البناء والزخارف العربية الإسلامي، ص22. مصدر سابق.

(23) عبد القادر باشا أعيان، موسوعة تاريخ البصرة 1 ص 348.

(24) عبد القادر باشا أعيان، موسوعة تاريخ البصرة 1 ص 365-366.

العام مما أدى إلى إغلاقه لفترة ليست قصيرة.

الطريقة الردينية

ليست الردينية طريقة قائمة بذاتها، وإنما هي طريقة خرجت من رحم الرفاعية. وتنسب هذه الطريقة إلى أسرة آل الرديني، وهي من الأسر الصوفية في البصرة، والتي ينتهي نسبها إلى جدهم السيد علي الرديني الذي يتصل نسبه بالإمام زين العابدين بن الحسين بن علي. وهم سادة حسينيون⁽²⁵⁾.

ويقال إن الأسرة جاءت إلى العراق وإلى البصرة من الهند قبل ثلاثة قرون تقريبا. واستوطن أحد أجداهم، الذي يحمل اسم السيد إبراهيم الرديني في (أبو الخصيب) وهو يعد عميد الأسرة. وكان أحد المتصوفة المعروفين وقد أسس التكية في قضاء (أبو الخصيب)، وله مريدون يعقدون حلقات الذكر. مات ودفن في نفس القضاء⁽²⁶⁾.

ويرى آخرون أن الشيخ إبراهيم جاء إلى البصرة العام 925. 927 هـ (1519 - 1520 م) أي قبل خمسة قرون. وتوفي سنة 941 هـ 1534 م. وقد بنى الشيخ عبد السلام الثاني العباسي سنة 1011 هـ 1602 م قبة على قبره⁽²⁷⁾ وقد كان للطريقة تكايا كثر، تتوزع بين مركز المدينة وبعض الأضية والنواحي خصوصا قضائي الزبير وأبو الخصيب.

لكن كان للطريقة تكية، عدت وقتها، من أكبر تكايا البصرة الصوفية. كانت ملاصقة لجامع البصرة الكبير. ولم تكن تكية لإقامة حلقات الذكر وحسب، بل كانت معهدا علميا ومجلسا يلتقي عنده كبار علماء وشيوخ البصرة. والطريقة اليوم مندثرة كليا ولا وجود لها. وإن كانت ثمة محاولات يبدلها ويسعى لها بعض أفراد

(25) عبد الله بن إبراهيم الغملاس، ولاية البصرة ومتسلموها لابن الغملاس، ص 56.

(26) القاضي أحمد نوري الأنصاري، النصرة في أخبار البصرة، تحقيق الدكتور يوسف عز الدين، ص 74-73.

(27) انظر المصدر السابق. وانظر أيضا: عبد القادر باشا أعيان، موسوعة تاريخ البصرة 1 ص 353.

الأسرة لإعادة حضورها من جديد⁽²⁸⁾.

الطريقة التجانية

المعروف إن الطريقة التجانية أسسها المغربي أحمد التجاني أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وهي من الطرق التي لها حضورها الكبير في بلدان المغرب العربي، ومنه انتقلت إلى مصر والسودان والجزيرة العربية والعراق أيضا. ويقال إن دخولها للبصرة كان في ثمانينيات القرن الماضي، عبر السودانيين الوافدين إلى المدينة لغرض العمل. وتعد من الطرق قليلة الأتباع والانتشار. يقتصر حضورها في قرية البلداحدى توابع قضاء أبو الخصيب. ويعد «مزاحم جاسم آل طه» - وهو من متصوفة البصرة المعروفين - شيخ الطريقة ومؤسسها. وللطريقة أذكارها الفردية والجماعية، كحال غالبية الطرق الصوفية المعروفة.

الطريقة الخمرية

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ علي أبو خمرة، شقيق الشيخ محمد الهندي المتصوف المعروف والمدفون في ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد. وتقول الرواية المتداولة بين بعض متصوفة العراق، إن توطنهم في العراق جاء بعد هجرة أسرته من الجزيرة العربية في حدود عام 1233 هـ واستوطنوا في البداية في مناطق تتبع محافظة كركوك شمال العراق. ومنها انتشرت هذه الأسرة في مناطق متفرقة من العراق خصوصا في بغداد.

أما في البصرة فيقال إنها دخلت في بداية القرن العشرين على يد أحد علمائها وصوفيها المعروفين، وهو الشيخ عبد الوهاب الفضلي، والذي يعده معاصروه من أبرز الشخصيات الدينية والصوفية في البصرة، ولعب دورا كبيرا في نشر ثقافة التصوف الإسلامي. وقد استطاع الفضلي توسيع من دائرة انتشار الطريقة في البصرة، عبر

(28) انظر الرابط الالكتروني:

<http://www.alsayadi.net/showthread.php?t=642>

تأسيس تكايا تعود لها. ومن أبرز تلك التكايا:

التكية الرئيسية: كانت تستقر في جامع عبدالله أغا (جامع البصرة الكبير حالياً) وقد أسسها الشيخ عبدالله الفضلي. وهي مندثرة اليوم.

تكية جامع السيف: ملحقة بجامع السيف وسط البصرة. وقد أسسها ملا محمد الأنصاري. وهي مندثرة أيضاً.

تكية جامع الحدادة⁽²⁹⁾: ملحقة بهذا الجامع أيضاً. وهي من تأسيس ملا طه الأنصاري.

تكية مناوي لجم: وتقع في منطقة مناوي لجم في مدخل قضاء أبو الخصيب. أسسها الشيخ عبد الحميد. وتعد الطريقة اليوم مندثرة وجميع تكاياها مغلقة بعد وفاة أصحابها وشخصياتها البارزة. وبحسب رواية بعض متصوفة البصرة فإن الطريقة الخمروية لها موقف مناوي من فعاليات وطقوس الضرب والإيغال بالألم؛ كاستخدام الخناجر والسيوف. التي تتمسك بها بعض الطرق المعاصرة.

الطريقة النعيمية

ومن الطرق المتفرعة أيضاً عن الطريقة الرفاعية، ولها وجود في بعض المحافظات العراقية خصوصاً في أربيل. ولا يعرف متى اكتسبت هذا الاسم لكن المؤكد أن تسميتها جاءت من تسمية الأسرة التي أسستها وهي أسرة السادة النعيمية. ويقال إن الطريقة دخلت للبصرة في الثلاثينيات من القرن العشرين على يد أحد أفراد الأسرة الوافدين من مدينة الموصل. ووجودها في البصرة محدود بتكية واحدة صغيرة، قليلة الأتباع، تقع ملحقة ببيت أسرة مؤسسها في منطقة المشراق وسط

(29) ربما يتساءل البعض إننا جئنا على ذكر هذا الجامع -الذي يعد أحد الجوامع الأثرية في البصرة- في طرق أخرى. وهذا صحيح فقد تنوع هذا الجامع بتكاياه الصوفية أو باحتضانه لطرق مختلفة. وذلك بحسب روايات؛ إن الجامع يتحول من طريقة لأخرى حسب إمام الجامع الذي تعينه دائرة الأوقاف فإن كان رفاعياً أضحت الجامع حاضنة للرفاعيين وإن كان قادرياً أو غير ذلك يصطبغ الجامع بذلك.

البصرة يرأسها اليوم السيد أسامة النعيمي.

الطريقة النوبية

طريقة لها تميزها في البصرة، لوجود أعداد كبيرة من ذوي الأصول الإفريقية منذ قرون في المدينة. وقد أخذت تسميتها نسبة إلى شعب النوبا القاطن في الرقعة الجغرافية المعروفة بجبال النوبا في القطاع الجنوبي الشرقي، من إقليم كردفان بجمهورية السودان. وقد شاع لفظ النوبا للدلالة أيضا على أحد الفنون الإفريقية الوافدة إلى البصرة وإلى عموم منطقة الخليج العربي.

وقد تميز هذا الفن عن بقية الفنون ذوات الأصل الإفريقي، بالإيقاعات الطقوسية ذات العمق الديني والتي يعتقد أن لها دورا في (تخليص الأبدان من لمسات الجان والأرواح الشريرة، وبعض الأمراض النفسية والعصبية المستعصية وغيرها). وهو ليس فن الزار، «الزيران» الذي اشتهر بذلك لكنه يشترك معه ببعض الإيقاعات. ويعد اليوم فن النوبا أحد الفنون الشعبية التي تقدمها فرقة الفنون الشعبية البصرية.

والملاحظ أن أتباع الطريقة النوبية، لا يدعون أنهم ينتسبون لمدرسة صوفية معروفة. بل يجدون أنفسهم مدرسة قائمة بذاتها. فهي- أعني الطريقة- بجميع تفاصيلها تنتمي إلى الموطن الأصلي لإقليم النوبا على الرغم من وجود أتباعها منذ مئات السنين في البصرة. لهذه الطريقة تكية⁽³⁰⁾ في محلة القبلة- التي تعد احد مناطق تمركزهم- بالقرب من جامع الحدادة المعروف بتاريخه الصوفي. وتتميز حلقات الذكر النوبي بأداء غنائي راقص مع إيقاع الطبول والعزف على آلات موسيقية

(30) المكان الذي يتجمع عنده أتباع الطريقة النوبية لا يسمى بـ التكية كما هو الحال عند بقية الطرق الصوفية في البصرة بل له تسميته الخاصة والتي تتفرد به الطريقة عن غيرها وهو اسم «المكيد». وهو المكان الذي تعقد فيه جلسات خاصة. منها؛ وهي الأشهر، جلسة «الزيران» ويقومون فيها بأداء طقوس خاصة على أفراد خاصين وهم الذين يزعمون أنهم قد تلبسهم الجن أو الشيطان فيجري في الجلسة استنطاق الجن أو الشيطان الذي يستقر بجسد المتلبس لغرض إخراجه. وتتم تلك الطقوس بمصاحبة ترانيل وأذكار خاصة وبمعية أصوات بعض الآلات الموسيقية القديمة وتذبح خلالها أيضا أضحية تقدم كقرابين. ومن يقوم بتحضير هذه الجلسة يسمى بـ «البابا» إذا كان رجلا. وبـ «الماما» إذا كان امرأة

بعضها آلات افريقية قديمة.

كما أن اللغة التي تعقد بها حلقة الذكر وطقوسها ليست اللغة العربية، بل هي إحدى اللغات النوبية القديمة. ليس للطريقة أتباع صوفيون كثير، لكنها مازالت قائمة. ويتولى شؤونها شخص يدعى نجم أبو سهيل. وتجدر الإشارة إلى أن الطريقة تنحصر بين البصريين ذوي البشرة السوداء دون غيرهم.

الطريقة المباسية

وهي طريقة جاء بها البصريون ذوو الأصول الإفريقية أيضا، وقد أخذت تسميتها على ما يبدو من مباسة «كينيا». ولا يوجد معلومات دقيقة عن هذه الطريقة وعن تاريخ دخولها. وهل هي طريقة صوفية إسلامية؟ أم إنها تأصلت بعد ذلك. ويزعم أتباعها أن مؤسس طريقتهم هو الصحابي بلال الحبشي لذلك يسمون أنفسهم أحيانا بـ الطريقة البلالية. انحسر اليوم أتباعها، وقلَّ مریدوها. لكن مع ذلك لهم اليوم تكية قائمة أسسها شخص يدعى ملا عبد الرزاق عبد الجليل في حي القبة الشعبي، جنوب غرب مركز المدينة. وتشهد هذه التكية إقامة حلقات الذكر الأسبوعية. وقد كان لهم تكية في مركز البصرة أسسها الشيخ محمد جوهر المدفون فيها. وتكاد طريقتهم تنحصر بشريحة السود من أهل البصرة وإن كان لها حضور مهم من غيرهم.

تكايا مندثرة مجهولة الطريقة

نجد إشارة سريعة إلى أسماء بعض التكايا، التي أوردها صاحب كتاب التحفة النبهاية عند تطرقه إلى مساجد وجوامع البصرة في القرن الثالث عشر الهجري . بلغ عددها عشر تكايا. حمل أكثرها أسماء أصحابها أو مؤسسيها. وقد أشار- النبهاية- إلى أن العديد منها لم يعد له وجود في زمنه، إما أنها انمحت كليا أو

أصبحت خرائب⁽³¹⁾.

كما لم يشير النبهاني إلى الطرق التي تعود لها تلك التكايا. وللأسف لا وجود لمصادر يمكن الركون إليها لمعرفة الطرق الصوفية التي تعود لها تلك التكايا. لكن بحسب المتتبع لتاريخ المتصوفة في هذه المدينة، وطرقها يمكن أن يرجع غالبية هذه التكايا، لصالح الطريقتين الرفاعية والقادرية. وهما الطريقتان الأكثر والأقدم انتشاراً ووجوداً في البصرة.

والتكايا التي أوردها النبهاني هي: تكية الحاج عبد القادر الهندي. تكية العباس. تكية جامع أبي منارتين. تكية جامع مرهون. تكية الحورية. تكية سير الذهب. تكية ملا عبود. تكية خراب. تكية ملا بدران. تكية عبد السلام التفكجي. وكل هذه التكايا مندثرة اليوم عدا جامع ذي المنارتين هو مازال شاخصاً لكن مجرد جامع يؤمه الناس للصلاة فقط.

الطريقة الكسنزانية في البصرة

اسمها الكامل هو الطريقة العلية القادرية الكسنزانية نسبة إلى ثلاث شخصيات بارزة؛ بدءاً بالإمام علي، ومروراً بالشيخ عبد القادر، وانتهاءً بالشيخ عبد الكريم الكسنزان (ت1899م)، والذي أخذت الطريقة تسميتها منه. ومعنى لفظ كسنزان باللغة الكردية (سلطان الغيب) أو (السر الذي لا يعرفه أحد)⁽³²⁾.

وقد كان الشيخ عبد الكريم الكسنزان وقتذاك شيخاً للطريقة القادرية، لكن استطاع أن يضيف لها خصائص جديدة، مهدت لتأسيسه طريقة جديدة حملت اسمه فيما بعد منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

أما شيخ الطريقة الحالي محمد الكسنزاني فقد استلم الطريقة بعد وفاة

(31) النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ج9، ص97-99.

(32) الشيخ محمد الكسنزاني، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان - ج19 - مادة (الكاف - م ي ي)

والده الشيخ عبد الكريم الثاني (ت1978م). وهو من مواليد (1938م). ويعزى له الدور الكبير في نشر الطريقة واستقطاب مریدين لها. ليس في العراق وحسب بل في دول كثيرة. وتنتمي العائلة الكسنزانية إلى العشيرة الكردية المعروفة بالسادة البرزنجية، والتي تعد أكبر العشائر في إقليم كردستان العراق.

دخلت الطريقة للبصرة في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، بواسطة بعض العسكريين المنتمين للطريقة، والذين يخدمون في جبهة البصرة أثناء الحرب مع إيران. والذي تمكن أحدهم وهو ضابط برتبة رائد يدعى «حجي نهاد» من أهالي الأعظمية في بغداد من اللقاء في عام (1982م) بشخص يدعى إبراهيم أحمد⁽³³⁾ وهو مؤذن جامع الكواز الشهير.

وقد استطاع (حجي) نهاد إقناعه- إبراهيم أحمد- وبعض مشايخه من مناصرة الطريقة الكسنزانية والتمهيد لإدخالها للبصرة. بعد أن اصطحبه معه إلى بغداد ليأخذ إجازة في خلافة الطريقة في البصرة. إلا أنه لم يستمر مع الطريقة إلا فترة محدودة ليغادرها نهائياً عام 1983. وتلك كانت البداية، التي دفعت أحد متصوفة البصرة على الطريقة الرفاعية وهو «جاسم محمد عبد الله»، والذي سيصبح لاحقاً أول خليفة بصري فاعل للطريقة الكسنزانية بعد أن أجازه شيخ الطريقة العام محمد الكسنزاني.

ويعد خليفة جاسم، وهو ينحدر من أصول بلوشية سنية المذهب، بمثابة نقطة الشروع لبداية انتشار الطريقة في البصرة. وفي منزله تم تنظيم أولى حلقات الذكر قبل أن تنتقل إلى التكايا التي تم بناؤها في أماكن متفرقة من البصرة⁽³⁴⁾.

وقد استطاع خليفة جاسم، وهو من أسرة صوفية قديمة، أن يستقطب للطريقة، أتباعاً أكثر ومن مذاهب إسلامية مختلفة. وكان أبرز الأتباع؛ شخص يدعى «طالب

(33) إبراهيم أحمد» هو نفسه رئيس بيت المقام العراقي في البصرة سابقاً، وأستاذ للمقام العراقي حالياً، وشخصية موسيقية معروفة في العراق.

(34) لقاء أجراه الباحث مع طالب ميرزا الحسيني -أحد مؤسسي الطريقة الكسنزانية في البصرة- في منزله بتاريخ 2010/12/9

ميرزا الحسيني» وهو شيعي المذهب، وينحدر من أسرة دينية معروفة في البصرة. وقد استطاع الأخير - خليفة طالب لاحقا - أن يلعب هو وخليفة جاسم دورا تبشيريا كبيرا للطريقة في البصرة، وعلى يديهما تمكنت الطريقة من إيجاد موطن قدم لها في البصرة حتى الآن.

مع أن الاثنين انسحبا عن الطريقة لأسباب أرجعوها إلى هيمنة المصالح الفئوية الخاصة داخل التكايا وتغير النوايا الصادقة إزاء خدمة أتباع الطريقة ومريديها⁽³⁵⁾.

تكايا الطريقة في البصرة:

كما أشرنا إلى أن تاريخ دخول الطريقة الكسنزانية إلى البصرة، يعود إلى بداية الثمانينيات من القرن المنصرم. وقد نُظمت أولى حلقات الذكر في بيت أحد مؤسسيها الأوائل عام 1981⁽³⁶⁾. وبقيت حلقات الذكر تعقد في بعض بيوت مؤسسيها، وخصوصا منزلي «الخليفتين» جاسم وطالب. حتى عام 1987. وهو الذي شهد بناء أولى التكايات الكسنزانية في البصرة. وأهم التكايا العائدة للطريقة هي:

أولا: تكية البصرة: وهي أول تكية للطريقة، تقع في منطقة البصرة القديمة، تم تأسيسها في 1987 من قبل «خليفة جاسم» -تقدم ذكره- ويديرها الآن الخليفتان عماد وعادل، بعد أن انسحب منها جاسم. وتعد تكية البصرة ثاني تكايا الطريقة من حيث أهميتها، والأنشطة التي تقوم بها نظير: إقامة حلقات الذكر الأسبوعية او اليومية، بالإضافة إلى إنشاد المدائح النبوية.

ثانيا: تكية الزبير: شهدت مدينة الزبير افتتاح أول تكية عام 1988، وهي ملحقة ببيت أحد مؤسسي الطريقة في البصرة وهو ميرزا طالب الحسيني. وفي العام نفسه تمكنت الطريقة من بناء أكبر التكايا وأوسعها وأكثرها إقامة لحلقات الذكر

(35) لقاء مع طالب ميرزا الحسيني، مصدر سابق

(36) لقاء إذاعي مع خليفة عماد عبد الصمد مسؤول تكية الطريقة في مركز البصرة، إذاعة المريد، حزيران 2009

في البصرة قاطبة. لذا تعد التكية الرئيسة للطريقة، على الرغم من إنشاء تكيات أخرى بعدها. وقد لعب الخليفة طالب الشيعي المذهب، دورا أساسيا في تحقيق أول بيت رسمي للطريقة في الزبير.

والملاحظ إن غالبية من تولوا شئون هذه التكية، هم من غير أهل البصرة، بل حتى من خارج العراق. فقد تولاهما مرة شخص سوداني الجنسية. بينما بقي البصريون بعيدا عن ذلك حتى عام 2003. وأسباب ذلك كما يقول بعض أتباعها تعود إلى وجود حزازات مذهبية وعرقية، وحتى مناطقية. لكن كل ذلك يجري على نحو غير معلن من قبل كبار مسئولو الطريقة، فالأولوية للعرقية الكردية أولا ومناطق الشمال والوسط ثانيا مع تجاهل أتباعهم من المنطقة الجنوبية والبصرة على وجه التحديد⁽³⁷⁾.

ثالثا: تكية القرنة: شيدت العام 1989 من قبل مؤسسها السيد حسن الموسوي، شيعي المذهب، وقد استمرت باستقبال المريدين والأتباع حتى 2003 بعد تغيير النظام السياسي في العراق.

رابعا: تكية الأصمعي: تم تأسيسها العام 1991، هي ليست بناءً منفصلا قائما بذاته. كما هو حال التكايا السابقة، بل هي عبارة عن مبنى صغير ملحق ببيت مؤسسها الخليفة «علي شبيب»، وهي مغلقة الآن.

خامسا: تكية محيلة: نسبة إلى قرية محيلة في قضاء أبو الخصيب في البصرة، تم بناؤها بين عامي 1990. وما زالت التكية تشهد إقامة حلقات الذكر الأسبوعي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مؤسس هذه التكية، هو شخص يدعى خليفة

(37) يقول: «فأنا على الرغم من أنني لعبت دورا محوريا في إكمال التكية الرئيسة وكنت من المؤسسين الأوائل إلا أنهم تجاهلوني ولم يكافئوني بإدارة مسئولية التكية الأم للطريقة في البصرة. وعندما أرسلت كتابا للشيخ العام للطريقة عبر بعض الأتباع، جاءني الجواب أن الحكومة العراقية السابقة (نظام صدام حسين) ألزمته أن لا يعطي مسئولية التكايا الرئيسة إلى أتباع من أصول شيعية» (لقاء مع طالب، مصدر سابق).

علي عبد الحسن وهو شيعي المذهب.

سادسا: تكية الفاو: وهي آخر التكايا التي افتتحتها الطريقة في البصرة العام 2004 في قضاء الفاو أقصى جنوب شرق البصرة. وقام بفتحها الشيخ عبد المجيد الراشد. وهي تكية مفتوحة ويقام فيها الذكر الصوفي.

هذه هي التكايا التي تعود إلى الطريقة الكسنزانية، والتي توقف بعضها عن إقامة حلقات الذكر إما لوفاة أصحابها أو لمرضهم.

وهنا تجب الإشارة إلى أنه طوال تاريخ الطرق الصوفية في البصرة، لم يسجل انتشار للتكايا بهذا العدد لطريقة واحدة. ويبرر القائمون على الطريقة كثرة التكايا العائدة لهم، بأن الطريقة تبذل مالا وفييرا لغرض توسعة رقعة انتشارها سواء في العراق أو غيره من البلدان الأخرى. وهي تدعم بقوة بناء التكايا في كل مكان. وعلى الرغم من هذا الانتشار لتكايا الطريقة في البصرة، إلا أن عدد أتباعها ظل محدودا وتناقص أكثر في خلال السنوات العشر الأخيرة.

ويقدر بعض مسؤولي الطريقة في البصرة عدد أتباعهم بـ(2000) مريد⁽³⁸⁾، وهو عدد يدل على محدودية مناصري هذه الطريقة على الرغم من حضورها الواسع. وطبعا الأمر أكثر انحسارا بالنسبة لطرق صوفية أخرى، والأسباب كثيرة سنأتي على ذكرها لاحقا.

خصائص متصوفة البصرة في الوقت الراهن

ربما تميزت مدرسة البصرة في التصوف، بمعناه الروحي، ومنذ النشأة عن غيرها بالاعتدال والتوسط، ولم يعرف تصوفها الشطحات، التي شاعت لدى مدارس أخرى غير عراقية. كمدرسة التصوف الأعجمي. التي عرف عنها أنها مدرسة (السكر والملاحة والشطحات). وهذا ما يتضح في شخصيات تتسب لهذه المدرسة

(38) لقاء إذاعي مع خليفة عماد، مصدر سابق.

كشخصية أبي زيد البسطامي (ت261هـ). في المقابل عرفت المدرسة الروحية في عموم العراق باسم؛ مدرسة التوكل والصحة.

ما يهنا هنا هو التطرق تحديداً إلى ما يميز متصوفة البصرة منذ منتصف القرن العشرين وانتهاءً بالقرن الواحد والعشرين. وهم يعتبرون من جيل روحي واحد على نحو عام، مع فارق بسيط هو أن متصوفة النصف الأول من القرن العشرين لم يعرفوا ما يعرف اليوم بالخوارق الجسدية عند بعض الطرق. عدا ذلك هم يتسمون بسمات واحدة. وأهم تلك السمات:

- الاعتدال: من أبرز سمات ممارسي التصوف في البصرة ليس الآن، وحسب بل هي صفة لازمتهم منذ نشأة الحركة الروحية في البصرة.

- التكامل بين الشريعة والطريقة: سمة قديمة أيضاً اشتهر بها البصريون الأوائل مع الجدد. لم يذكر المؤرخون أن صوفياً بصرياً شذ عن ذلك إلا على نحو محدود. أما الآن، فلا يوجد من المتصوفة الحاليين من لا يؤمن بذلك. بل يجدون في الأمر شرطاً حتمياً وإلا عُدَّ من غيرهم. ولا يمكن ولوج التصوف دون ممارسة الفرائض أولاً.

- سنية المذهب: جميع الشخصيات البارزة ومعهم المؤسسون والذين جاءوا من بعدهم هم ينتسبون إلى المذهب السني. وهو المذهب الرسمي للمتصوفة وللطرق التي برزت بكثرة من القرن السادس الهجري وحتى القرن الخامس عشر. ففي البصرة لا توجد طريقة صوفية بمعناها الاصطلاحي إلا وهي سنية المذهب. نعم هناك منتسبون لهذه الطرق من الشيعة وبصورة محدودة جداً.

وعلى الرغم من كون أئمة الطرق الصوفية في العراق وفي البصرة هم سنيو المذهب، إلا أن هذا لم يؤثر في قناعتهم حول ضرورة التمسك بالأخوة الدينية. لذا - كما أشرت- تضم الطرق مذاهب إسلامية متنوعة دون أن يترك ذلك حزازات

طائفية ومذهبية على الأقل في خطابها الرسمي.

- الانقطاع مع الطرق الأم: اقصد بذلك أن غالبية متصوفة البصرة حالياً ليست لديهم صلات أو تواصل مع الطرق الأم سواء في العراق أو في بلدان عربية أخرى. بل يعيشون بمعزل عنهم ولا يتلقون أية تعليمات أو توجيهات من أحد، عدا أتباع الطريقة الكسنزانية.

وهذا يتبين على نحو أكثر وضوحاً بعدم وجود مشايخ حقيقيين للطرق بقدر أتباع تربطهم علاقات قلبية مع الطريقة التي ينتمون إليها وعادة ما يأتي ذلك لأسباب عائلية. بمعنى أن عوائلهم عرفت بولائها لطريقة ما وأصبح ولاؤها جزءاً من هوية العائلة.

العلاقة مع السلطة

بالنظر إلى انحسار كبير في حضور المتصوفة وطرقها والتكاي التي تتبع لها في مدينة البصرة؛ حينئذ لا معنى للحديث عن طبيعة العلاقة بينهم وبين السلطة خصوصاً بمعناها السياسي. بسبب غياب الطرف المعني - وأعني به المتصوفة - المؤثر في المشهد السياسي أو حتى الاجتماعي. وهذا الاستنتاج لا ينحصر وحسب في الفترة الأخيرة بل ينسحب أيضاً على عقود مضت وبالأخص خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

وهذا ما يدفعنا إلى القول إن العلاقة بين متصوفة البصرة وبين السلطة السياسية اتسمت بالقطعية النهائية أو شبه النهائية. وعلى المستويين الفاعل والمفعول. فلم يكن لهم دور داعم للسلطة أو محرض عليها. كانت العلاقة تتسم بالهدوء والمسالم، وكانت السلطة تغض النظر عنهم لاعتقادها بأنهم لم ولن يشكلوا عامل قلق لها، بسبب انتشارهم المحدود والمحدود جداً لدى عامة الناس.

نعم ثمة نشاط سياسي بسيط حاول تفعيله حزب سياسي يقوده أحد أبناء شيخ الطريقة الكسنزانية في العراق وهو الدكتور نهرو محمد، لكنه لم ينجح بكسب ود المتصوفة حتى من داخل أتباع الطريقة - الطريقة الكسنزانية - أولاً لمحدوديتهم

وثانيا لعدم تمتع هذا الحزب بحضور سياسي مهم في الساحة العراقية. كما أن هذا النشاط المتواضع لا يظهر إلا في الدورات الانتخابية وبانتهائها يختفي الحزب عن المشهد البصري.

أتباع الطرق الصوفية والتصنيف الاجتماعي

ربما ينحصر أتباع الطرق الصوفية في بلد ما على طبقة اجتماعية، وهذا ما لا ينطبق على أتباع الطرق الصوفية في البصرة فقد تنوعت الانتماءات الطبقية لأتباعها. فإلى جانب عامة الناس وفقرائهم هناك أيضا من عليتهم وأعيانهم سياسيا أو اجتماعيا. لكن مع هذا التنوع الطبقي بين أتباع التصوف في البصرة تبقى النسبة الكبرى من مرتادي التكايا هم من طبقة الفقراء ومتوسطي الدخل ومن عامة الناس وبسطائهم. والسبب - كما سيتم التطرق إليه عند تبيان أسباب الانحسار- هو أن الطرق الصوفية لم تستطع من خلال خطابها إقناع أصحاب العلم وأهل الوجاهة والمشتغلين في السياسة بالانتماء لها.

استهداف الصوفية بعد 2003

المعروف عن أهل التصوف، أنهم ميالون إلى المسالمة والهدوء، في علاقتهم السياسية على الأقل خلال القرون الأخيرة في العراق والبصرة أيضا. إلا أن تلك الصفة، لم تكن كافية لإبعادهم عن دائرة الاستهداف، من قبل أطراف ميلشيوية وحزبية ودينية أيضا.

ففي البصرة الاطراف التي حاولت التعرض لهم وإنهاء وجودهم، ليست هي نفسها التي لاحقت متصوفة بغداد أو بقية المدن العراقية غير مدن الجنوب. فبينما لاحقت الجماعات السلفية الجهادية تلك الطرق وأتباعها في وسط وغرب وشمال العراق. لاحقت جماعات جهادية شيعية، متصوفة الجنوب والبصرة بصفة خاصة، وإن كان تعرضهم لهم أقل وتيرة من أقرانهم في مناطق بغداد وأعالي الفرات.

فقد تعرضت التكية الرئيسية لإحدى الطرق في البصرة العام 2004 إلى

سقوط قذائف هاون على مقرها. كما واجه بعض المتصوفة (ال دراويش) مضايقات كثيرة من قبل عناصر تنتمي إلى أحزاب دينية مهيمنة. ويتحدث بعضهم، عن أن بعض التكايا واجهت ضغوطات لتحويلها إلى حسينية لصالح أحد الأطراف الدينية المتشددة إلا أن المحاولة لم تنجح.

وارتفعت وتيرة التعرض للمتصوفة بعد العام 2006 الذي شهد أعمالاً طائفية كبيرة، بعد تفجير واحد من أهم المراكز الشيعية في سامراء. وقتها واجه الدراويش أوضاعاً صعبة للغاية. خصوصاً الذين يحضرون منهم حلقات الذكر في التكايا. مما دفعهم إلى الانقطاع عن التواصل معها والانعزال داخل منازلهم. كما تعرضت التكية الرئيسية للطريقة الكسنزانية في الزبير، أواخر العام 2004 إلى مدهمة أمنية عراقية بمشاركة قوات ديمقراطية، إثر «وشاية» حول وجود أسلحة داخل التكية وتحويلها إلى مكان لإيواء المسلحين.

أسباب انحسار الطرق الصوفية في البصرة

على الرغم من أن البصرة احتضنت تاريخاً طويلاً للحركة الروحية في الإسلام، وكانت قد وضعت أسس وقواعد تلك الحركة، بالإضافة إلى تقديمها أسماء كبيرة في هذا المجال، مع كل هذا فهي اليوم تشهد انحساراً كبيراً وواضحاً على الصعيدين؛ صعيد الطرق الصوفية وأتباعها، على حد سواء. وهذا الانحسار لم تسجله البصرة فجأة، بل يعود -على الأقل- للعقود الثلاثة الأخيرة، وإن كان الانحسار اتسع أكثر بعد عام 2003 إلا أنه بدأ مبكراً عن ذلك.

ويمكن أن نوجز أسباب ذلك بالآتي :

أولاً: عدم قبول الاتجاه الصوفي بمعناه الاصطلاحي عند عامة الناس، الذين يعدونهم جزءاً من فئة الضالين، بسبب أعمال خوارق تؤديها بعض الطرق. مما مهدت لاتهمها بالدجل والسحر.

ثانياً: غياب المراكز الثقافية والتنظيمات الاجتماعية، التي ترعى نشر ثقافة

التصوف وبيان مضامينه وفلسفته وأصوله.

ثالثا: الانتماء الطائفي والتدين المذهبي، الذي يتصف به غالبية أبناء البصرة، والنظر إلى كل مختلف مذهبي نظرة تشوبها الريبة وعدم الثقة.

رابعا: التشهير بهم دينيا من قبل رجال الدين الوعاظ، ورسم صورة سلبية عنهم بوصفهم أهل بدعة وانحراف. وهذا ما كان يعلنه المنتمون إلى المذهب الوهابي قبل عام 2003 وأكده من بعدهم عدد من خطباء ووعاظ الشيعة.

خامسا: علاقتهم السياسية مع نظام صدام حسين التي اتسمت بالهدوء. إلى جانب وجود تقارير تتحدث عن تورط بعض كبار إحدى الطرق الكبيرة في البصرة في تلقي أموال طائلة من قبل النظام العراقي قبل العام 2003، كانت سببا آخر للنظر إليهم سياسيا بوصفهم عناصر غير مرحب بها في المشهد الجديد.

سادسا: عدم وجود مجلس أو اتحاد، يجمع متصوفة البصرة على اختلاف طرقهم ومشاربهم الروحية. مما أضعف وجودهم وحضورهم في الواجهة.

هذه هي اهم العوامل، والاسباب التي اتسمت بها ظاهرة الانحسار المتزايد للطرق الصوفية، واتباعها في مدينة البصرة. وبطبيعة الحال، لايمكن الادعاء انها وحدها المسؤولة عن تشكل هذا المشهد المنسحب. فهناك عوامل متداخلة، كثيرة لكنها - من وجهة نظري- لم تستطع ان تكون طرفا اساسا، ومؤثرا داخل هذا المشهد.